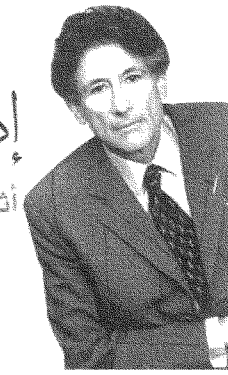

إدوارد سعيد
أثرُه في العالم... وفينا

الأنثروبولوجيا تواجه أزمة ما بعد الاستشراق

□ أسيل صوالحة

يغيب في الجامعة ويحضر في المطعم!

في ربيع عام ١٩٩٤، عندما كنتُ طالبةً في أحد صفوف «الجندر» [الجُنُوسة] والحركات الاجتماعية في «جامعة مدينة نيويورك،» كانت غالبية «القراءات المقرَّرة لذلك المساق مكتوبةً من قِبل باحثات غربيات يَدْرسن أوضاعَ النساء في كافة أنحاء العالم: بدءًا بالتمييز العنصريّ ضدّ النساء في مجتمعات الملوَّنين وبخاصة الأفارقة الأمريكان الذين يسكنون في الأحياء الفقيرة للمدن الأميركية، مرورًا باضطهاد النساء المسلمات ومنعهنّ من الخروج من المنزل والمشاركةِ في الحياة العامة في البلدان العربية، إلى نشوء الحركات النسائية الثورية في أميركا اللاتينية مثل مجموعة أمّهات المختفين، وانتهاءً بآثار السياسات الحكومية على وضع المرأة في شرق آسيا.

كان الخطاب السائد في غالبية تلك الكتابات يقول بأنّ على الحركات النسوية في الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا تحمّلَ مسؤولية إنقاذ نساء العالم الثالث ومساعدتهنّ على التخلُّص من قمع النظام الأبويّ المتخلِّف. غير أنّه على الرغم من التعاطف الذي تبديه هذه الكتاباتُ تجاه نساء العالم الثالث، فإنّ هذا الخطاب النسويّ الأكاديميّ مبنيّ على أنّ المجتمعات الغربية متفوّقة حضاريًا بل وإنسانيًا على المجتمعات غير الغربية. وبهذا، فإنّ مثل هذا الخطاب يعيد إنتاجَ العديد من علاقات القوة غير المتكافئة بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وذلك بالتسليم بأنّ نساء العالم الثالث لا يَمْلكن القدرةَ على إحداث التغيير في مجتمعاتهنّ بدون مساعدة الغرب. ولكنّ هناك مشكلة جوهرية في افتراض أنّ هذه المجتمعات تقوم باضطهاد النساء بسبب **طبيعة** الثقافات السائدة لديها، من دون الأخذ في الاعتبار العواملَ السياسيةَ والاقتصاديةَ والتاريخَ الطويلَ من الاستعمار ـ وكلُّها مجتمعةً تَحُول دون تمكين النساء من المطالبة بحقوقهنّ، بل تعزِّز وتعيد إنتاجَ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تحطّ من شأن المرأة. كذلك لا يُمْكن فصلُ مشاكل نساء العالم الثالث عن التحديات التي تواجهها هذه المجتمعاتُ بشكل عامّ.

وعلى الرغم من أنّ مدرسة المساق المذكور كانت ماركسيةَ التوجه وتتبنّى المنهجَ النظريّ الاقتصاديّ ـ السياسيّ التقدميّ، فقد كان هناك القليلُ جدًا من كتابات النساء اللواتي ينتمين إلى الأقليات العرقية في الولايات المتحدة، بل وغابت كليًا كتاباتُ نساء العالم الثالث عن قائمة القراءات المقرَّرة.

لحسن الحظّ كان من بين طلاب ذلك المساق عددٌ لا بأس به من طالبات العالم الثالث. وبدون أيّ تخطيط مسبَق، وبعد أن ينتهي الصفُّ الأسبوعيُّ، كنّا نذهب إلى أحد المطاعم القريبة ونتذمّر من أنّ الخطاب في هذه القراءات موجَّه إلى جمهور النساء الغربيات، ونشكو غيابَ كتابات نساء من بلدان الشعوب التي كنا نقرأ عنها. بعد أسابيع قليلة قرَّرنا تشكيل حلقة قراءة بديلة أَطْلقنا عليها اسم «حلقة قراءة لنساء من القارة الآسيوية.» ضمّت المجموعةُ طالبات من كوريا الجنوبية والصين وإيران وفلسطين وسوريا والهند، وكان الهدف المبدئيّ للحلقة قراءةَ ومناقشةَ مؤلَّفات لكاتبات من آسيا. تولّت المشاركاتُ مسؤوليةَ توفير نصوص من بلدانهنّ الأصلية، كانت شبهَ مغيَّبة في غالبية المقررات الجامعيَة. ولم تكن المفاجأة كبيرة عندما أَجْمعت المشاركاتُ في الحلقة على البدء بقراءة كتاب إدوارد سعيد **الثقافة والإمبريالية**، وكان قد صدر حديثًا. فعلى الرغم من أنّ الكتاب لم يتناول أوضاعَ المرأة والإمبريالية بشكل مباشر، إلاّ أنّ كتابات سعيد عامةً كانت قد أثَّرتْ بشكل مباشر في الدراسات النسوية والجنوسية، وبخاصة تلك التي كانت تَصْدر كجزءٍ من دراسات ما بعد الكولونيالية: فإذا ألقينا نظرةً سريعةً على قوائم مراجع هذه الدراسات وَجَدنا أنّ معظمها استخدم كتابات سعيد دعامةً لأطره النظرية.

سلاح المعرفة

عند الحديث عن أفكار وأعمال إدوارد سعيد التي صَدَمَتْ كافة فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية على المستوى العالميّ بل وأعادتْ تشكيلها أيضًا، قد يكون من الصعب، ومن غير اللائق، التطرُّقُ إلى التجربة الشخصية أو الفردية. إلاّ أنّني سأجازف في هذه المغامرة أملاً في تقديم مثال للكيفية التي زَوَّدَتْ بها كتاباتُ سعيد الأنثروبولوجيين (وخصوصًا من أبناء العالم الثالث) بأطرٍ نظريةٍ وأدواتٍ تحليليةٍ ومنهجيةٍ بديلةٍ لتلك التي كانت سائدة. وقد تجلّى هذا التغيير بظهور أنواع جديدة من الدراسات الأنثروبولوجية عُرفتْ بـ «أنثروبولوجيا الاستعمار» أو «دراسات ما بعد الكولونيالية.»

مثلَ كثيرٍ من أبناء العالم العربيّ الذين يشدُّون الرِّحال إلى الغرب من أجل تحصيل المعرفة من مصادر إنتاجها، واجهتُ عددًا من التحديات. فقبل السفر إلى مدينة نيويورك للحصول على درجة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، وعلى الرغم من معرفةٍ لا بأس بها باللغة الإنجليزية، كان لديّ رهبةٌ وتخوُّفٌ من عدم التمكُّن من الكتابة والمشاركة في النقاشات الأكاديمية بلغةٍ غيرِ اللغة الأم. ولكنْ من أجل التغلب على هذه المشكلة، وبناءً على نصائح الأصدقاء، قمتُ بزيارات متعددة إلى مكتبات في الأردن بحثًا عمّا توفّر من كتب الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية المترجمة إلى العربية أملةً في أن تكون أسهلَ للقراءة والفهم من الكتب المكتوبة باللغة الإنجليزية. كان كتاب **الاستشراق**، المترجَم إلى العربية من قِبل كمال أبو ديب، من الكتب التي حملتُها، إضافةً إلى العديد من الكتب الأخرى مثل قواميس الترجمة **وأركيولوجيا المعرفة** لميشيل فوكو وكُتُب محمد أركون عن الإسلام.

كانت لهذه الكتب منافعُ عديدةٌ تختلف عمّا خطّطتُ له سابقًا. فعلى الرغم من أنّها لم تُغنِ عن قراءة النصوص ذاتها باللغة الإنجليزية، إلاّ أنّها شكّلتْ في السنة الأولى للدراسة السلاحَ الدفاعيَّ (ولو من الناحية النفسية) أمام عقدة النصّ التي عادةً ما يَشْعر بها الغرباءُ من طلاّب العالم الثالث إزاء الخطاب الغربيّ الفوقيّ. ففي كلّ يوم هناك سيلٌ دافقٌ من أسماء المؤلّفين والفلاسفة التي لم أسمع بها من قبل، والعديد من المصطلحات والأفكار النظرية التي لم أكن على دراية بتاريخ نشوئها. وبعد نهار طويل يبدأ بالمكتبة للحصول على نسخ من المقالات المقرَّرة قراءتُها، إلى محاولات المشاركة بالحديث داخل قاعات الدرس وخارجها (مع الحرص الشديد على عدم استعمال كلمة «يعني» بالعربية في منتصف الجملة)، كنتُ أعود إلى غرفتي الصغيرة في السكن الجامعيّ وألجأ إلى قراءة بعض صفحات الكتب بالعربية. كان المحيطون بي من العرب والأميركان ينصحونني بعدم القراءة بالعربية لكي أعتاد الإنجليزيةَ، إلاّ أنّني كنتُ أردّ بأنّني أفكّر بالعربية، وبأنّ دماغي بعد الساعة الثامنة مساءً يكون قد تعب من الإنجليزية ولا يعمل إلاّ بالعربية.

بعد أن أَلِفْتُ اللغةَ الإنجليزيةَ وانتهيتُ من قراءة الكتب العربية التي حملتُها، تحوّلتُ إلى قراءة كتابات المؤلّفين العالمثالثيين، أمثال إدوارد سعيد وطلال أسد، حول علاقات القوة غير المتكافئة بين الشرق والغرب، وتشكيكِها بالدراسات الاستعمارية. كانت هذه الكتابات تزوّدني بالفخر وبالكثير من الأمل في إمكانية أن يُسْهم القادمون من المناطق الهامشية في إنتاج المعرفة في مراكز الوسط المهيمنة. فالحقّ أنّ مثل هذه الأعمال زوّدت الباحثين من أبناء الدول التي كانت مستعمَرة، أو ما زالت تَقْبع تحت الاحتلال، بسلاحِ معرفةٍ مَكّنهم من إلقاء اللوم على الاستعمار وتبعاته.

فيما يلي سأقدّم عرضًا موجزًا بالتغيرات التي طرأتْ على دراسة الانثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية في السنوات التي تَلَتْ نشرَ كتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد. وسأتناول الدراساتِ الأنثروبولوجيةَ المكتوبةَ باللغة الإنجليزية، إذ لا يتاح المجالُ هنا لتناول الدراسات المكتوبة بالعربية أو الفرنسية أو الألمانية.

الأنثروبولوجيا: سعيد يثير الشكوك

يمكن تعريفُ الأنثروبولوجيا التقليدية بأنّها المجالُ المعرفيّ المتعلق بدراسة الآخر، الذي غالبًا ما يُفترض أنّه أكزوتيكيّ، بدائيّ، غيرُ منطقيّ، وبحاجة إلى التطوير والتنمية ليتمكّن من اللحاق بركْب الحضارة الغربية. كتاب **الاستشراق** لإدوارد سعيد، إضافةً إلى القليل من الكتابات الأنثروبولوجية النقدية التي سبقتْه أو عاصرتْه مثل **الأنثروبولوجيا والصدام الاستعماريّ** لطلال أسد (١٩٧٣)،[١] لعبتْ دورًا كبيرًا في إثارة الشكوك في دور الأنثروبولوجين في خدمة المشاريع الكولونيالية وفي مصداقية الدراسات الأثنوغرافية التي صدرتْ خلال الأعوام المئة من عمر الأنثروبولوجيا. فقد صَوَّرتْ هذه الدراساتُ مجتمعاتِ الشعوب المدروسة على أنّها بدائية ومتوحِّشة ومتخلِّفة. فعلى سبيل المثال وصَفَتْ هذه الأثنوغرافياتُ، وبكثير من التفصيل، وأحيانًا بنوع من الإثارة، علاقاتِ القرابة، وعاداتِ الزواج والدفن، وأساليبَ الصيد وجمع النباتات... بدون الإشارة إلى أنّ هذه المجتمعات تعيش تحت حكم الاستعمار الفرنسيّ أو البريطانيّ أو البرتغاليّ! إضافةً إلى أنّ عددًا كبيرًا من الأنثروبولوجيين الذين كَتَبوا هذه

١ ـ Talal Asad, **Anthropology and the Colonial Encounter** (London: Brill Academic Publishers, 1994).

كثير من الأثنوغرافيات التي صدرت قبل **استشراق** سعيد كانت عن العرب الغرائبيين

النصوص كانوا يعملون لصالح هيئات استعمارية أو تبشيرية.

هذه الأطروحات النقدية وَضَعَتْ أنثروبولوجيا الثمانينيات والتسعينيات في أزمة أخلاقية ونظرية. فكيف يمكن الدفاعُ عن مجالٍ معرفيّ ارتبط تاريخُه بالتوسُّع الاستعماريّ والاستغلال الغربيّ لبقية أنحاء العالم؟ ذلك أنّ كثيرين، من بينهم أنثروبولوجيون، وَصَفوا الأنثروبولوجيا بأنّها الابنةُ غيرُ الشرعية للاستعمار. وتوقّع البعضُ أنّ الأنثروبولوجيا كموضوع دراسة قد شارفتْ على الموت والفناء. ورأى آخرون أنّه من غير الأخلاقيّ للأنثروبولوجيين الغربيين دراسة ثقافات المجتمعات غير الغربية. واقترح البعضُ الآخر أن يلتزم الأنثروبولوجيون القضايا السياسيةَ للمجتمعات والشعوب التي يدرسونها. كانت نتيجة هذه النقاشات الحادة هي التسليم بأنّ الأنثروبولوجيا ليست «علْمًا،» وأنّ من المستحيل للأنثروبولوجين ادعاءَ الموضوعية في دراستهم لثقافات الشعوب غير الغربية وعاداتها. إضافةً إلى التسليم بأنّ الهوية أو الخلفية الاجتماعية والثقافية للباحث أو الباحثة ستؤثّر في نوع المعلومات التي يتمّ جمعُها وتحليلُها. بناءً على هذا، استُنتج أنّ النصوص الإثنوغرافية هي نصوصٌ أدبية لا علمية. هذه الحقائق مَهَّدت الطريقَ لظهور مدارس نظرية جديدة في الأنثروبولوجيا مثل «أنثروبولوجيا الاستعمار» التي أوجدتْ إطارًا تمّتْ من خلاله إعادةُ النظر في الكيفية التي يجري فيها تصويرُ الشعوب المدروسة وتمثيلُها. فعلى سبيل المثال ظهر العديدُ من الكتابات التي تتساءل عن الحقّ في «سرقة» الثقافات المادية لشعوب العالم الثالث وعرضِها في المتاحف الغربية، إضافةً إلى نقد النصوص الإثنوغرافية والتساؤل عن علاقات القوة غير المتكافئة بين الأنثروبولوجيين الغربيين ومواضيعِ بحثهم من شعوب العالم الثالث.

ردًا على هذه الانتقادات الموجّهة إلى الأنثروبولوجيا، شهدتْ فترةُ الثمانينيات والتسعينيات ظهورَ أكثر من مدرسة نظرية أنثروبولوجية، من أبرزها الأنثروبولوجيا الماركسيةُ التوجُّه التي اعتمدتْ على المنهج السياسيّ الاقتصاديّ في التحليل. وقد قامت هذه الدراسات بتوثيق الثورات وحركات التحرُّر ضد الاستعمار والرأسمالية، علاوةً على دراسة الأوضاع الاقتصادية الاستغلالية التي يتعرَّض لها العاملون في المصانع والمناجم. ودرس الأنثروبولوجيون الماركسيون الأرشيفَ الكولونياليَّ ونصوصًا من فترات الاستعمار، وحاولوا توثيقَ أشكال المقاومة من قِبل الشعوب التي كانت تعيش تحت الحكم الاستعماريّ. من أبرز الأمثلة على ذلك كتاب **أوروبا والشعوب التي لا تاريخ لها**[1] لإيريك وولف. ولكنّ الأنثروبولوجيا الماركسية انتُقِدتْ، هي نفسُها، بسبب تركيزها على الجوانب الاقتصادية والسياسية وإهمالِها النواحي الثقافيةَ للمجتمعات المدروسة. وعلى العكس من الانثروبولجيا الماركسية أتت «الأنثروبولوجيا الانعكاسية» reflexive anthropology وأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة، فأَوْلَتا اهتمامًا كبيرًا لدراسة الرموز الثقافية، ورصدِ أنواعٍ متباينةٍ من علاقات القوة بين الجماعات المهيمنة وتلك المسيطَر عليها. ولكنّ هذا النوع من الدراسات اتُّهم، بدوره، بالمساهمة في إصدار تعميمات ماهوية، ومن ثم إنتاج تعميمات شبيهة بتلك التي كانت تُطْلقها الدراساتُ الاستعمارية.[2]

غير أنّه كان من أبرز التغيُّرات في الأنثروبولوجيا خلال السنوات الأخيرة تخرُّج عددٍ لا بأس به من الأنثروبولوجيين غير الغربيين الذين تلقَّوْا تدريبَهم الأنثروبولوجيّ في المؤسسات التعليمية الغربية. وقد عُرف هؤلاء الأنثروبولوجيون باسم الأنثروبولوجيين الأصلانيين أو المحليين indigenous/native anthropologists. هؤلاء الانثروبولوجيون تطرّقوا بالدرس والتحليل إلى موضوعاتٍ لم تتعاملْ معها الأنثروبولوجيا التقليدية. فعلى سبيل المثال ظهرتْ دراساتٌ عن حقوق الأقليات، وأوضاع الفقر في المدن الكبيرة، وأخرى عن آثار العولمة على الثقافات المحلية. هذا النوع من الدراسات طَرَحَ تساؤلاتٍ جديدةً حول علاقة الباحثين بالشعوب التي يدرسونها. فعندما يَدْرس الباحثون المجتمعاتِ التي ينتمون إليها هل يمكن اعتبارُ هذه الدراسات أنثروبولوجيةً؟ وهل يُمْكن اعتبارُ مثل هؤلاء الأنثربولوجيين الذين تلقَّوا التدريبَ الأنثربولوجيَّ في المؤسسات الغربية محليين؟ إضافةً إلى إشكالية أخرى، وهي أنّ

١ ـ Eric Wolf, **Europe and the People Without History** (Berkeley: University of California Press, 1983).

٢ ـ Johannes Fabian, **Time and the Other** (New York: Columbia University Press, 1983). Nicholas Dirks, **Colonialism and Culture** (University of Michigan Press, 1994).

النصوص التي ينتجونها موجَّهةٌ بالدرجة الاولى إلى القارئ الغربيّ. هذا النوع من الدراسات أضاف عددًا آخر من الأسئلة عن الدور الأخلاقيّ للأنثروبولوجيا.

ديْنُ الأنثروبولوجيا المعاصرة لسعيد

السؤال الأخير هنا هو كيف أثّرتْ كتاباتُ سعيد على أنثروبولوجيا الشرق الأوسط؟ إذا ألقينا نظرةً سريعةً على الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية المتعلّقة بشعوب منطقة الشرق الأوسط، نلاحظ أنّ مؤلِّفي كثيرٍ من الإثنوغرافيات التي صدرتْ قبل الثمانينيات والتسعينيات كانوا من الرجال الغربيين البيض الذين دَرَسوا تركيبةَ المجتمعات القَبَلية أو البدوية أو ما يُمْكن تسميتُه «أنثروبولوجيا الجِمال وبيوتِ الشَّعْرِ.» هؤلاء الأنثروبولوجيون كانوا يبحثون عن التقليديّ الذي لم تَطلْه يدُ التغيير الغربية، كمواضيع النزاعات القبلية وعادات الثأر والغزو والقضاء العشائريّ. أما الدراسات التي أَجْرَتْها نساءٌ في الفترة نفسها فقد ركّزتْ على الدور الهامشيّ للمرأة، وعلى علاقات القرابة والزواج، وخاصةً الزواج من أبناء العم والخال، لكنّها أكثرتْ من التعميم وتقديمِ صورةٍ نمطيةٍ عن المجتمعات العربية (من قبيل أنّها تَسْكن الصحراء وتَرْتحل من مكان إلى آخر على مدار السنة). فباستثناء القليل من الدراسات، لم يهتمّ الأنثروبولوجيون بدراسة المجتمعات المدنية أو الريفية. وقد انتُقِدتْ هذه النصوصُ ووُصفتْ بأنّها شكلٌ من أشكال الاستشراق الذي يصوِّر الشعوبَ العربيةَ والشرقأوسطية بأنّها الآخر المتخلِّف والغريب والإكزوتيكيّ.

في السنوات القليلة الأخيرة ظهر العديد من الدراسات الأنثروبولوجية حول الثقافات المدنية، أو الحركات النسائية في الأحياء الفقيرة في المدن. فعلى سبيل المثال دَرَسَتْ جولي بُتييت أحوالَ النساء في المخيمات الفلسطينية في لبنان، مع التركيز على الدور الذي لعبه الاحتلالُ الإسرائيليُّ في إنتاج أشكالٍ مختلفةٍ للمقاومة وتغييرِ دورِ النساء في المجتمع. أما سَتَني شامي فأَجْرتْ أبحاثَها عن الأقليات الشركسية في مدينة عمّان ومسألةِ تشكيل الهوية الأردنية، من خلال النظر إلى دور الدولة في بناء القومية. كذلك صدر العديدُ من الدراسات عن اليمن والمغرب ومصر انتقدت السياساتِ العالميةَ لبرامج التنمية. وفي السنوات القليلة الماضية ظهر عددٌ من الدراسات قام بها أنثروبولوجيون عرب، وتُرجم بعضٌ منها إلى العربية.

الأنثروبولوجيا المعاصرة تدين لكتابات إدوارد سعيد بالكثير من تاريخها الحديث. ذلك أنّ الأزمة التي مرّت بها الأنثروبولوجيا بعد صدور كتاب **الاستشراق** غيَّرتْ من وجه الأنثربولوجيا. فبعد أن كانت مرتبطةً بالاستعمار والقوى الإمبريالية في السابق، نجد أنّ أقسام الأنثروبولوجيا في الجامعات الأميركية اليوم أصبحتْ تُعرف بمراكز إنتاج الأفكار الراديكالية! وفي الوقت الحاليّ، وفي ظلّ حكومة أميركية محافظة تتبنّى منهجَ التوسع الاستعماريّ، اتخذ عددٌ كبيرٌ من الأنثروبولوجيين مواقفَ معارضةً للحكومة وانتقدوا سياساتها تجاه الحرب على العراق. بل قبل إعلان الحرب قامت اللجانُ الطلابيةُ في الجامعات بتنظيم ندوات تثقيفية عن الأوضاع السياسية السائدة، شارك فيها عددٌ كبيرٌ من أساتذة الأنثروبولوجيا.

هنا علينا التذكير بأنّ إدوارد سعيد كان مثالاً للمثقف الملتزم بالقضايا السياسة والعامة. وقد شَجّعتْ مشاركتُه في النشاطات السياسية **خارج** النطاق الأكاديميّ الكثيرَ من الأكاديميين على المشاركة في الحياة العامة. وحاليًا نرى عددًا من أساتذة الجامعات بين المتظاهرين ضد الحرب، وثمة آخرون ينشرون مقالاتٍ في المطبوعات غير الرسمية عبر شبكة المعلومات، أو يوقّعون أسماءَهم على عرائض تطالب بمحاكمة شارون كمجرم حرب. لقد كان إدوارد سعيد، ومايزال، مثلاً أعلى لكثير من هؤلاء.

نيويورك

أسيل صوالحة

كاتبة جامعية فلسطينية. أستاذة الأنثروبولوجيا في جامعة **Pace** في نيويورك.